

تمثيلات المرأة للخطاب الإسلامي المعاصر: قضاياها نموذجاً

'دراسة ميدانية على عينة من نساء جامعيّات'

مريم صالح بوشارب (*)

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن المعرفة الاجتماعية المصوّغة حول المرأة في الخطاب الإسلامي المعاصر، وكلّ ما يتبع ذلك من معتقدات وممارسات ومواقف لدى المرأة نفسها وبصورة أدقّ البحث في كَيْفِيَّة إعادة إنتاج هذه الخطابات اجتماعياً ومخيالياً ومعيشياً في الحياة اليومية للمرأة. إنّ البحث في التمثيلات الاجتماعية للمرأة من خلال الخطاب الدينيّ، تكشف وضعيّة ومكانة المرأة وطبيعة العلاقات التي تربطها بمكونات المجتمع، فالمتغيّرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ليست معياراً وحيداً يتحكّم في واقع المرأة العربية المسلمة، بقدر ما يتحكّم فيه المتغيّر الثقافيّ المرتكز أساساً على الدين، الذي يؤطّره ويؤطرّ تصوّرات وسلوكيات الإنسان العربي المسلم، وستحاول هذه الدراسة استجلاء الصوّر والتمثيلات التي تحملها المرأة حول نفسها من خلال الخطاب الدينيّ، والذي يرصد بدوره مجموعة من قضايا المرأة: كالزواج وشروطه، وتعدد الزوجات، وزواج المرأة بدون وليّ، والعمل، شروطه، والحجاب، والمشاركة السياسية للمرأة، والشهادة، والميراث، والعنف ضد المرأة... الخ، لتخلص في النهاية إلى الكشف عن مدى الارتباط بين تمثيلات المرأة وهذا الخطاب، أو تقاطع الرؤى في ظلّ التغيّرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية الحاصلة.

الكلمات الأساسية: التمثيلات، المرأة، الخطاب الإسلامي، نساء جامعيّات.

The Woman's Representations of the Islamic Contemporary Discourse: Women's Issues as a Modal

Meriem Salah Bouchareb

Abstract: The aim of this study is to show social knowledge about the woman in contemporary Islamic discourse and almost her convictions and practices and positions and how she reproduces it at the social, imaginary and living levels in the daily life. The research in woman social representations through the religious discourse reveals the status of the woman and also the nature of her relationship with society. Especially that economic and social and political factors explain the reality of the Arab and Moslem woman less than cultural factor based essentially on religion. This study will. Bring to light the images and the representations held by the woman on herself through the religious discourse and its main questions as the conditions of marriage, the polygamy, the woman marriage without tutor, the woman's work The veil, the woman participation in political affairs, the witness, the heritage and the violence against the woman, etc. Finally we detect crossing of perspectives and points of view between the religious discourse and the woman representations in light of social, economical, cultural and political change.

Keywords: Islamic Contemporary Discourse; Woman; Representations

(*) أستاذة مساعدة - قسم أ / قسم علم الاجتماع - جامعة عنابة، الجزائر، bouchareb_meriem@yahoo.fr

المقدمة:

إن محاولة التفكير في توسيع حقول التدخل في علم الاجتماع - من خلال إعادة توظيف مفاهيم مؤسسة للنظرية السوسيولوجية - أضحت من المسائل الملحة لفهم بعض الممارسات التي تظهر من حين إلى آخر في المجتمع، ومن بين هذه المفاهيم التي أسست للنظرية السوسيولوجية في بدايتها مفهوم التمثّل الذي هو من المفاهيم «الدور كإيمية» الرئيسية التي انتقلت إلى فضاءات معرفية أخرى أثرت بعد أن هجرت الحقل السوسيولوجي لفترة معينة ثمّ عادت إليه في السنوات الأخيرة سيّما بعد أعمال كلّ من «DENIS JODELET» و«SERGE MOSCOVICI».

في هذه الدراسة سيتمّ توظيف هذا المفهوم في حقل علم الاجتماع الدينيّ، بالاستعانة بموارده المفهومية والمنهجية للكشف عن المعرفة الاجتماعية المصوّغة حول المرأة في الخطاب الإسلاميّ المعاصر، بكلّ ما يتبعها من معتقدات وممارسات ومواقف لدى المرأة نفسها، وبصورة أدقّ البحث في كيفية إعادة إنتاج هذه الخطابات اجتماعياً ومخيالياً ومعيشياً في الحياة اليومية للمرأة.

إنّ البحث في التمثّلات الاجتماعية للمرأة من خلال الخطاب الدينيّ، تكشف عن وضعية ومكانة المرأة وطبيعة العلاقات التي تربطها بمختلف مكونات المجتمع، أمّا اختيار الخطاب الدينيّ فيجده مبرّره في اعتباره المرجعية الأولى لتأسيس وبناء تصورات وتمثّلات المسلمين للحياة والوجود بشكل عام، وهو بذلك المصدر الرئيسيّ لمختلف تياراته (المتشدّدة والمعتدلة، المسلّحة والرسمية) في استلزام مشاريع الإصلاح والصحة حسب تعبير الإسلاميين من خلال أدبياتهم التي تعالج كثيراً من القضايا وعلى رأسها تلك التي تعنى بالمرأة من حيث مكانتها في الإسلام، حقوقها وواجباتها، الطهارة والحجاب والقوامة والاختلاط، خروجها للعمل... الخ.

تستهدف هذه الدراسة إذا، رصد قضايا المرأة التي يرسمها الخطاب الإسلاميّ المعاصر وانعكاساته على وضعيتها من خلال الصوّر والتمثّلات التي تحملها المرأة حول هذا الخطاب، باعتبارها محاولة لإعادة الاعتبار للمرأة العربية المسلمة، من منطلق أنّ النهوض بأوضاع المرأة لا يقتضي التركيز على العوامل الاقتصادية والسياسية والقانونية فحسب، ولكنه يقتضي الاهتمام بدايةً بتغيير الذهنيات من خلال الاهتمام بالخطاب الاجتماعيّ، الدينيّ منه بشكل خاص بحكم أنه يؤطره ويؤطر تصورات وسلوكيات الإنسان العربيّ المسلم.

مشكلة البحث:

إنّ التمثّلات باعتبارها مصطلحاً سوسيولوجياً يكشف لنا المعرفة الاجتماعية المصوّغة حول أيّ موضوع أو ظاهرة وكلّ ما يتبعها من ممارسات وتصورات ومواقف (Durkheim, 1998, p65) وذلك عن طريق إعادة بنائها علمياً من خلال الخطابات المنتجة من طرف الأفراد والجماعات، (Durkheim, 1998, p65) هي شكل من المعرفة المصوّغة والمشاركة بصفة جماعية ولها أهداف عملية تساهم في بناء واقع مشترك عند جماعة اجتماعية معينة (Couet et Davie, 1999, p171)، وهي بذلك موضوع للدراسة، له شرعية علمية نظراً لأهميته في الحياة الاجتماعية، لأنّها "تجربة حول السيرورات والتفاعلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات" (Abric, 2001, p11).

تسعى هذه الدراسة إذا للكشف عن صورة المرأة، وكيفية حضورها السوسيودينيّ أو السوسيوإسلاميّ - إن جازت لنا التسمية - من خلال التمثّلات التي تحملها المرأة نفسها للخطاب الدينيّ فيما يخصّ قضاياها، والكشف أيضاً عن محتوى التمثّل ومدى تجانسه.

ومن هنا نؤسّس لتساؤلنا الأصليّ على النحو التالي: ما هي تمثّلات المرأة للخطاب الإسلاميّ المعاصر فيما يخصّ

قضاياها؟

وتندرج تحت هذا التساؤل الأصليّ مجموعة من التساؤلات الفرعية على هذا النحو:

- ١ - كيف تتعامل المرأة مع الخطاب الدينيّ؟
- ٢ - ما منظومة التمثّلات التي تحملها المرأة عن عملها خارج البيت؟
- ٣ - ما منظومة التمثّلات التي تحملها المرأة عن الزواج؟
- ٤ - ما منظومة التمثّلات التي تحملها المرأة عن الشهادة والميراث؟
- ٥ - ما منظومة التمثّلات التي تحملها المرأة عن لباسها الشرعيّ «الحجاب»؟
- ٦ - ما منظومة التمثّلات التي تحملها المرأة عن العنف؟

منهجية البحث:

تناول هذه الدراسة التمثّلات الاجتماعية، ولبولوج معرفة التمثّل والعوامل والمحدّدات المشكّلة له، تمت الاستعانة بتقنيّة تحليل الخطاب، باعتبارها الأداة المناسبة لطبيعة الأسئلة المصوّغة في دليل المقابلة التي تجمع بين أسئلة أغلبها مفتوحة وأخرى مغلقة كما تمّ الاعتماد على هذه التقنيّة للكشف عن المواقف والاتجاهات والآراء والمعتقدات والتصوّرات ومنظومات التمثّل (Albarelo. luc 1995. p62) لشريحة من النساء، وللوصول إلى هذا الهدف فقد تمّ إجراء دراسة ميدانيّة على عيّنة من نساء جامعيّات، بجامعة سكيكدة دامت ستّة أشهر، وبعد الانتهاء من المقابلات وجمع كلّ المعطيات، تمّ الشروع في تحليل وتفسير البيانات وفق التقنيات والمراحل التالية:

إخضاع كلّ سؤال لتحليل معيّن وذلك حسب طبيعة السؤال، فصنّف من الأسئلة جرى إخضاعه للتحليل الفئويّ، وصنّف ثانياً تمّ إخضاعه للتحليل التقييميّ لأنه يُخبر عن التمثّل، وآخر ثالثاً وقع إخضاعه للتحليل المعجميّ لأنّه يُخبر عن كميّة قول التمثّل.

التحليل الفئويّ:

وهو أحد طرائق تحليل الخطاب، حيث تمّ استخراج الفئات وتسميتها، ثمّ توزيع وحداتها الدالة لمقاييس تحليل الخطاب: الشموليّة والتقاضي، بأن يكون العنصر الذي تحتويه فئة ما لا تحتويه فئة أخرى، كما تمّ ربط الفئات وإحالتها بمتغيّرات معيّنة ومبرّرة لتحمل كلّ أبعادها وتُخبر ببعض محدّدات التمثّل.

التحليل التقييميّ:

يستعمل التحليل التقييميّ للكشف عن الاتجاهات والمواقف والتصوّرات، ومن خلاله يتمّ التعرف على القيمة التي يعطيها الفاعل المتكلّم لموضوع اتّجاه معيّن، حيث فُكّكت الإجابات من خلال استخراج القضايا التي تستجيب لهذا المقياس (الملفوظات التقييميّة) كالتالي:

- ١ - موضوع الاتّجاه: قضايا المرأة في الخطاب الإسلاميّ المعاصر.
- ٢ - المفردات التقييميّة: وهي المفردات التي تصف مواضيع الاتّجاه، (أيّ ماذا تقول عنه المرأة) ويمكن أن تظهر المفردات في شكل أسماء، أو صفات، أو نعوت، أو أفعال... الخ، فالمفردات التقييميّة تكشف للباحث القيمة التي يعطيها الفاعل المتكلّم لموضوع الاتّجاه، كتقييم الموضوع إمّا إيجابياً /سليماً، مع /ضدّ، ويمكن ضرب مثل لذلك عند محاولة تحديد معنى «الحجاب» لدى فئة المستجوبات حيث وردت المفردات مختلفة المعنى والدلالة وبذلك الاتّجاه:
- «الحجاب سترة»، «الحجاب حرمة»:

• دلالة اجتماعيّة، اتّجاه إيجابيّ.

- الحجاب أداة للسيطرة على جسد المرأة.
- دلالة إيديولوجية، أتجاه سلبية.

٣ - الواصل: ما يربط بين موضوع الاتجاه والمفردات التقييمية، وقد يكون فعلاً أو ضميراً.

التحليل التواتري:

يعتمد على القراءة الرقمية للمحتوى، لأن، ه يقوم على تقديم صيغة إحصائية للوحدات الإخبارية، وقد تم الاعتماد عليه في المحور الذي يبحث في حقوق الزوج، والزوجة لمعرفة أي الحقوق هي أكثر تواتراً، ثم معرفة دلالاتها العميقة في بنية الخطاب الديني (المكانة، الصورة، والتمثل).

التحليل المعجمي:

من خلال هذا التعريف يمكن معرفة الانزلاقات على مستوى المعرفية وعلى مستوى المعنى، أي أن المفردة تنتقل من فضاء معرفي إلى آخر، فهي تارة تحافظ على المعنى نفسه، وهي تارة ثانية تأخذ معنىً جديداً مغايراً للذي كانت عليه من قبل، وبالاستعانة بالتحليل المعجمي يتسنى لنا معرفة الشحنات المختلفة للمفردة الواحدة سواء أكانت ذات طابع عاطفي، أو إيديولوجي، أو سياسي، أو عقائدي...

إن التحليل المعجمي يكشف لنا عن اللغة المعممة وتعني بها "اللغة السائدة بين عامة الناس"، وهي في الوقت ذاته تعبر عن إيديولوجيات وعقائد ومواقف، لأن، المفردة تصبح شائعة على ألسنة الناس، وهنا يحق لنا أن نسأل:

- هل تعي المرأة دلالة تلك اللغة المعممة التي تستعملها أم لا؟ لماذا تستعملها؟ ومتى تستعملها؟ وكيف تستعملها؟

ومن خلال التحليل المعجمي بإمكاننا معرفة إذا ما كانت المفردات محددة من خلال مجتمعات اجتماعية كالسن أو الجنس أو الوظيفة، أو المستوى التعليمي، أو الأصول الاجتماعية، كما يمكننا معرفة مكانة المفردات من خلال حجمها وتكرارها، لذلك استخدمنا التحليل التواتري قبل القيام بالتحليل المعجمي.

التقنية المستعملة:

اعتمد في جمع المعطيات الميدانية على دليل المقابلة، باعتبارها أنسب التقنيات كشفاً عن التمثل، فدليل المقابلة يكشف عن حقائق لا يمكن الوصول إليها من خلال الاستمارة، فهو يسمح للباحث بملاحظة ردود أفعال المبحوثات باستمرار، وتسجيل كل كبيرة وصغيرة من مفردات وانفعالات ناتجة عنهن لتوظيفها في عملية التحليل، "فالباحث من خلال دليل المقابلة يلعب دور الحاث والمستمع وربما المذكر لأن كل التركيز هنا يذهب إلى أقوال المبحوث". (Bourdieu:1993, p 76 – 77) وتجدر الإشارة هنا أنه تم استعمال المسجل في البداية للكشف عن حقيقة التمثل من خلال اللغة المستعملة، فالكلام يعكس تمثل الفرد للعالم والأشياء وبالتالي تسمح المقارنة بين اللغة المسموعة واللغة المكتوبة بمعرفة مدى ارتقاء الإجابات إلى مستوى التمثل من عدمه.

غير أنه تم التراجع عن استعمال المسجل حي رفضت نسبة ٨٩٪ من العينة ذلك، لاعتقادهم أنه دليل إدانة، فكثيراً ما تستعمل مثل هذه الأجهزة لإدانة شخص أو توريطه في قضية، إذ كانت هناك مؤشرات توحى بذلك، وأما بقية المبحوثات - وهن يمثلن نسبة (١١٪) الباقية - فقد رحبت بذلك دون تردد، شريطة ألا يسمع ذلك غير الباحث، وألا يستعمل مضمون خطابتهن إلا في غرض علمي.

وللوصول إلى حقيقة التمثلات التي تحملها المرأة عن الخطاب الإسلامي فقد قسمنا دليل المقابلة إلى محاور:

❖ المحور الأول: بيانات أولية.

❖ المحور الثاني: تعاطي المرأة مع الخطاب الإسلامي.

- ❖ المحور الثالث: المرأة وخروجها إلى العمل.
- ❖ المحور الرابع: المرأة والزواج.
- ❖ المحور الخامس: المرأة بين الشهادة والميراث.
- ❖ المحور السادس: المرأة بين الحجاب والعنف.

أما بالنسبة للأسئلة فقد استعمل نوعان من الأسئلة: أسئلة مغلقة، وأخرى مفتوحة، إلا أنه اعتمد بشكل أكبر على الأسئلة المفتوحة، نظر الطبيعة الموضوع - وهو التمثيلات - الذي يُعبّر عنه أكثر بالأسئلة المفتوحة، إذ من خلالها يمكننا معرفة عمق تفكير الباحثات، كما أنّ الأسئلة المفتوحة تعطي فرصة أكبر للباحثات للإجابة بجرية أوسع فضاءً، مع استعمال اللغة التي يردنّها عامية كانت أو عربية فصحي أو فرنسية.

مجتمع البحث ومجال الدراسة:

هو المجتمع الكلي الذي اختيرت منه العينة، وقد تمّ اختيار الجامعيّات عينةً للبحث (أستاذات وموظفات) بجامعة سكيكدة، عن طريق القيام بمسح شامل لكلّ أستاذات الجامعة، إلا أنّ صعوبة الاتصال واللقاء بهنّ شكّل عائقاً دون تحقيق ذلك، ليتمّ في الأخير الاكتفاء بأستاذة الكلية (كلية العلوم الاجتماعية) بحكم الانتماء إليها، أما الموظفات ذوات المستوى الجامعيّ، فقد جرى القيام بمسح شامل لهنّ بمختلف الكليات والأقسام لقلّة نسبتهنّ بكلية العلوم الاجتماعية، وقد تمّ اختيار هذه الفئة للأسباب التالية:

- ١ - انتماءهنّ للطبقة المثقفة القادرة على إعطاء صورة واضحة وتحليل منطقيّ علميّ للظواهر، إضافة إلى أهميّة مستواهّن الثقافيّ باعتبارهنّ كاشفاً أساسياً ومحدداً رئيسياً لتمثيلات المرأة للخطاب الدينيّ.
- ٢ - استقلالهنّ اقتصادياً، لمحاولة الكشف عن تأثير هذا المحدّد على تمثيلات المرأة للخطاب الدينيّ وموقفها منه إزاء عملها.
- ٣ - سهولة الاتصال مع عينة البحث، بحكم الانتماء إلى حقل مشترك.

العينة:

تمّ اختيار العينة (المبحوثات) وفق اشتراكهنّ في:

- ١ - كلّ أفراد العينة من جنس واحد (إناث).
- ٢ - كلّ أفراد العينة جامعيّات مع اختلاف مؤهلاتهنّ من ليسانس إلى مهندس دولة إلى ماجستير ودكتوراه.
- ٣ - كلّ أفراد العينة عاملات (موظفات أو أستاذات).

وبما أنّ عدد الأستاذات غير متجانس مع عدد الموظفات في الكلية وكذلك عدد المتزوجات غير متجانس في كلّ فئة، فإنّه اعتمد على التوزيع المناسب، من خلال الاعتماد على الموظفات الجامعيّات في مختلف الكليات وكانت عينة البحث بذلك عينة طبقية قصديّة. إنّ دقّة المعلومات التي نحصل عليها من خلال العينة الطبقيّة لا تتوقّف على حجم العينة فحسب، وإنّما على تباين المجتمع أيضاً، وبالتالي تقسيم المجتمع الأصليّ إلى طبقات باعتبار كلّ طبقة مجتمع مستقلّ، وهذه الطريقة تعطي فرصاً أكبر للعينة لتمثيل كلّ الطبقات، ولتفادي عدم الدقّة يُستحسن توزيع العينة على الطبقات وهو ما يُسمّى بالتوزيع المناسب، وعليه فقد كان توزيع عينة البحث كالتالي:

الجدول (١) عينة الدراسة موزعة وفقاً للوظيفة والحالة المدنيّة

المجموع	عزباء	متزوجة	الحالة المدنيّة	
			المهنة	الدرجة
١٠١	٣٩	٦٢	أستاذة	أستاذة
٩٩	٤٠	٥٩	موظّفة	موظّفة
٢٠٠	٧٩	١٢١	المجموع	المجموع

نتائج البحث:

بعد البحث الميداني والمقابلات المعمّقة مع عيّنة البحث تمّ الخلوص في النهاية إلى تمثّلات المرأة ليس للخطاب الديني فقط، ولكن للخطاب الاجتماعي بشكل عامّ، ذلك أنّه اختلط الخطاب الديني بالخطابين الاجتماعي والثقافي وبالسياسي في بعض الأحيان، إلّا أنّ ذلك لم يمنع من كشف بعض الرؤى المتقاطعة بين تمثّلات الخطاب وتمثّلات المرأة، حيث كشفت عن مصادر أخرى إضافة إلى الخطاب الديني الإعلامي، فتمثّلات المبحوثات مبنية أيضاً على ما يمكن تسميته «الإسلام الشعبي» الذي يسير عادة في اتجاه الإسلام الفقهي النخبويّ المستند إلى سلطة النصّ الشرعيّ الذاتيّ في القنوات الفضائيّة.

هذا النوع من الإسلام الشعبي يعتمد على العقيدة العفويّة التي تكتسب بعضاً من معارفها من الأساطير والحكم والأمثال، أو من الثقافة الشعبيّة بلغة أكثر دقّة، وهو ما ساعد كثيراً على الكشف عن بعض الخصائص الجوهرية لتمثّلات المبحوثات سوف تُوجز لاحقاً بعد عرض النتائج والإجابة على التساؤلات الفرعية كالتالي :

التساؤل الفرعي الأول:

لقد قدّمت التحليلات المنهجية المستخدمة للإجابة على التساؤل الفرعيّ الأوّل النتائج التالية :

إن وسائل الاتصال الحديثة (قنوات فضائيّة، انترنت) هي المصدر الأساسيّ في استقاء المستجوبات معارفهنّ الدينيّة، حيث بلغت نسبة مشاهدة المبحوثات للبرامج الدينيّة ١٠٠٪، في حين غاب الكتاب باعتباره مصدراً للحصول على المعلومة، إذ بلغت نسبة اللواتي يتعاملن مع الكتاب للحصول على المعلومة نسبة ٩٪ فقط، مع ملاحظة أنّ نوعيّة الكتب المقرّوءة يغلب عليها فقه المرأة، والرقية الشرعيّة، والأدعية والأذكار، وهي مواضيع تعكس الاهتمامات الدينيّة البسيطة لهذه الفئة بالرغم من انتمائها بنسبة ١٠٠٪ للأستاذات، في حين أعلنت نسبة ٩١٪ عزوفها عن القراءة والمطالعة، وقد أرجعت المبحوثات أسباب هذا العزوف إلى :

- ١ - منافسة وسائل الإعلام بنسبة ٨٦٪.
- ٢ - قلة الوقت والجهد والمال بنسبة ١٤٪.

أمّا البرامج الفضائيّة التي كانت تتابعها عيّنة البحث فقد كانت مواضيعها تتوزع بين مسائل العبادات والإيمان والخلاص الفرديّ، ناهيك عن الإرشاد الاجتماعيّ، والعلاج النفسيّ، إضافة إلى الإعجاز العلميّ والطبّ البديل.

وأمّا قضايا المرأة فقد كانت محصورة في مواضيع فقهيّة بسيطة جدّاً تتعلق بفقه بعض العبادات التي تخص المرأة المسلمة كالحيض، والصيام، والحقوق الزوجية، وأحكام الطلاق، والطاعة..

وأمّا رجال الدين الذين تأثرت بهم عيّنة البحث فقد كان جُلهم من فئة الدعاة الشباب، وهو ما تظهره النتائج التالية :

أظهرت النسب غياباً يكاد يكون تاماً لفئة الفقهاء وعلماء الشريعة، باستثناء الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي الذي كان له وقع ضعيف جدّاً على عيّنة البحث، حيث بلغت نسبة تأثيره ٢٪، في حين كان الداعية عمرو خالد أكثر حظاً في نسبة التأثير على عينة البحث بقدر بلغ ٣٢٪، يليه مباشرة الدكتور عمر عبد الكافي بنسبة ١٤٪، ثم الشيخ عائض القرني بنسبة ١٠٪، يليهم بعد ذلك كلّ من الأساتذة أحمد الشقيري بنسبة ٩٪، ثم طارق السويدان بنسبة ٨٪، فصفوت حجازي بنسبة ٨٪، أمّا محمود المصري فبلغت نسبة تأثيره على العينة ٧٪، وبلغت نسبة زغلول النجار نسبة ٦٪، وكان آخرهم ترتيباً خالد الجندي بنسبة ٤٪.

لقد أكّدت الدراسة الميدانيّة أنّ الخطاب الذكوريّ هو الأكثر تأثيراً وانتشاراً، وهو ما أثبتته النسب السابقة، مع غياب تامّ للخطابات الأنثوية، ويمكن تفسير ذلك بـ :

- أ - احتكار الرجل للحقل الدينيّ والعلمي لفترة زمنية طويلة منذ عصر التدوين، أهله للحصول على تفويض أزلّيّ يمارس من خلاله دور الوصيّ على المرأة.
- ب - التعامل مع المرأة على أنها موضوع لا ذات، فهي إذن ورشة مفتوحة لمن أراد الاشتغال عليها، في حدود الإطار المرسوم و المتعارف عليه وهو "فقه المرأة" وما يشده من قضايا تقليديّة.

ج - التصورات السلبية التي يحملها المجتمع عن المرأة، خاصة ذلك الذي بُني على الحديث الشريف (ناقصات عقل ودين)، إذ كيف لناقصة عقل ودين أن تنتج خطاباً دينياً؟

كما يبدو جلياً من خلال النسب السابقة أنّ المبحوثات متأثرات بمجموعة من الدعاة الجدد والمعاصرين مع غياب شبه تامّ للدعاة التقليديين، إلا الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يملك من سبق ما جعل له شيئاً من الحضور مع الدعاة لما له من الخصائص التي ميّزته عنهم تماماً.

وترجع قوة تأثير الدعاة الجدد إلى اختلافهم شكلاً ومضموناً عن الدعاة التقليديين، فهم لا يلتزمون بزّي العلماء التقليدي ولا بلغة الخطاب التراثية القديمة، لخلوّها " من أيّ طرح علميٍّ للمسائل الفقهية أو أيّ جدال يرهق المشاهد، فهي تطرح "خطاب التدين الآمن" الذي لا يقود المشاهد (المبحوثات) إلى أيّ نوع من أنواع الصدام مع السلطة أو المجتمع" (وائل لطفي، ٢٠٠٩، ص ١٧)، حيث يسعى هذا الخطاب إلى حث المشاهد بجرعة دينية قوية تمكّنه من ملء ذنوبه الفراعين الفكرية والسياسية، وذلك التهميش الاجتماعي الذي يعيشه، ويعوّض شقاءه وبؤسه بالعبادات - وهو ما تبحث عنه عينة البحث - وقد انعكس ذلك على تمثلاتهن.

التساؤل الفرعي الثاني:

وللإجابة على هذا السؤال فقد تمّ أولاً عرض أهمّ الأفكار والتصوّرات التي أنتجها الخطاب الدينيّ حول أدوار المرأة وخروجها للعمل، حيث يؤكّد هذا الخطاب على الأدوار التقليدية للمرأة في توجيهها لتكون زوجة وأمّاً ومربية أطفال وقيماً على شؤون المنزل بشكل عامّ.

ومن موقع الحرص على الدين والأخلاق والفضيلة لا يتوقّف هذا الخطاب على العزف على وتر سلبيات عمل المرأة وما ينجم عنه من فساد للأخلاق وانتشار للرديلة، وهدم للأسرة. . . الخ، ونظراً لسلبيات عمل المرأة فإنّ خروجها للعمل يبقى للضرورة أي وفق شروط، وفضاءات خاصة أهمّها التعليم والتمريض، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ قاعدة سدّ الذرائع - وهي أصل من أصول الفقه الإسلاميّ - كان لها التأثير الكبير في قضية خروج المرأة للعمل بل كان تأثيرها على فقه المرأة المسلمة ودورها في بناء المجتمع بشكل عام وهو ما عاق مسيرة المرأة في المجتمعات الإسلامية وحرم النساء المسلمات من معظم حقوقهنّ، غير أنّ تمثلات عينة البحث لا تتطابق مع هذا النوع من الخطاب، حيث أبحاث نسبة ٦٤٪ من المبحوثات عمل المرأة، في حين أبدت نسبة ١٨٪ منهنّ جهلها بحكم الإسلام في عمل المرأة، بينما تجاوزت نسبة ٨٪ منهنّ مع بعض الخطابات التي اشترطت نمطاً خاصاً من الفضاءات لعمل المرأة، في حين حرّمت نسبة ١٠٪ منهنّ عمل المرأة، وعلى العموم فموقف عينة البحث من عمل المرأة المسلمة موقف إيجابيّ يخالف أغلب الخطابات الدينية السائدة، ويتوافق مع الاستثناء الذي يشجّع عمل المرأة ويدعوها إلى اقتحام مجال السياسة، غير أنّ عينة البحث مازالت تعتبرها فضاءً ذكورياً بامتياز.

ويرجع انفتاح المبحوثات على هذه الخطابات الاستثنائية إلى غياب نصّ قطعيّ حول عمل المرأة وشروطه، إضافة إلى الظروف المادية الصعبة التي تعيشها أغلب الأسر العربية المسلمة، ثمّ لما في عمل المرأة من استقلال اقتصادي لها تحقق به ذاتها في المجتمع.

التساؤل الفرعي الثالث:

أظهرت تمثلات المبحوثات نوعاً من القطيعة مع الخطاب السائد حول مؤسّسة الزواج وما ينتج عنها من حقوق وواجبات من مثل التعدّد والطاعة. . . الخ، ويبدو ذلك من خلال رصد عينة البحث لجملة من الحقوق الغائبة تماماً في الخطاب الدينيّ وهي في الحقيقة مطالب تكشف عن تلك التحوّلات المرصودة في المجتمعات العربية المعاصرة، وبالخصوص في المجالين: الاجتماعي والاقتصادي اللذين استلزما ظهور أدوار ووظائف وتنظيمات اجتماعية جديدة تختلف اختلافاً نوعياً عن منظومة الأدوار والوظائف

التقليدية السائدة، فلقد أبدت كثير من المبحوثات رغبتها وحلمها في أن يتقاسم زوجها معها أعباء البيت كالتطبخ والتنظيف خاصة، إضافة إلى تربية الأولاد، إذ شكت كثير منهن من التعب والإرهاق الذي يصيبهن نتيجة العمل داخل البيت وخارجه، فعينة البحث - كما يبدو - تقدّم حقوقاً عجز الخطاب الديني عن استيعابها، وتمتّى أن يوفرها لهن أزواجهن، فيتستى لهن بذلك استيعاب طموحاتهن وأدوارهن الجديدة في ظل التحوّلات البنيوية التي تعرفها المجتمعات العربية.

أما مضامين هذه الواجبات، فتبقى القوامة أو حقّ النفقة والذي بلغت نسبته ٣٢٪ من واجب الزوج فقط حسب عينة البحث، فعلى الرغم من التحوّلات الاجتماعية السابقة الذكر، وبالرغم من انتماء عينة البحث إلى فئة العاملات إلا أن ذلك لم يغيّر شيئاً من مسألة النفقة، لتبقى بذلك واجبا ذكورياً، وهنا نوّكد أنّ المرأة تتمثّل مبدأ القوامة تمثلاً إيجابياً وتعتبره مكسباً خوله إياها الإسلام ولا يجب الاستغناء عنه أو حتى تعديله من خلال مساعدة الزوج ومقاسمته مصاريف الحياة.

بعد حقّ النفقة يأتي واجب الاحترام وحسن المعاشرة حيث بلغت نسبته ٧٦٪، وهي نسبة مرتفعة تنم عن وعي المرأة بذاتها واحترامها لنفسها والذي يوجب بدوره احترام الزوج لها، فالمرأة اليوم صارت تبحث عن علاقة زوجية تسودها المودّة والاحترام والثقة بين الطرفين، وهو ما يؤكده أيضاً حقّ الوفاء وعدم الخيانة والذي بلغت نسبته ٥٢٪، كما أبدت عينة البحث معارضة كبيرة لمسألة تعدّد الزوجات الذي رأين فيه إهانة كبيرة للمرأة ومساساً بكرامتها حيث بلغت نسبتها ٧٩٪، وعلى العموم فعينة البحث تطمح إلى حقوق أوسع فضاءً في مسألة الزواج والحقوق الزوجية، وهو ما غاب أو غيّب عن الخطاب الديني.

التساؤل الفرعيّ الرابع:

أما نتائج تحليل هذا التساؤل فقد أكدت المبحوثات بشكل مطلق تجاوبها الكبير ومن ثمّ تمثّلاتها الإيجابية لمسألة الشهادة والميراث من باب القاعدة الفقهية القائلة "لا اجتهاد مع النص" حيث أكدت أغلب المبحوثات التزامها بأحكام الميراث، والشهادة، فالمرأة حسب عينة البحث ناقصة عقل ودين، وتابعة اقتصادياً للرجل، فلا حرج في أن تحصل على نصف حظّ الرجل في الميراث بنسبة ٩٨٪.

التساؤل الفرعيّ الخامس:

أما في مسألة الحجاب والعنف الممارس على المرأة، فقد اكتفت نسبة ٨٢٪ على تأكيد فريضة الحجاب والزاميته، متحجّجات بأنّ ذلك مذکور في القرآن الكريم والحديث الشريف، كما كشفت هذه الدراسة جهلاً تاماً لهذه الفئة باختلاف دلالات المعاني التي نزل بها الحجاب (الخمير، الجلباب، الحجاب) مع التأكيد على معنى واحد وهو الحجاب الجسدي وليس الفضائي أو المكاني، ومن كان لهنّ معرفة بالنصوص من خلال ذكر أرقام الآيات والسور وكانت نسبتهنّ ٨٪، فإنّ فئة قليلة فقط منهنّ كانت قادرة على تلاوة الآيات دون خلط أو أخطاء، مع جهل مطلق بأسباب النزول، وحرصاً على تأكيد رصد شروط الحجاب من طرف عينة البحث فقد استطاعت نسبة ٢٤٪ من حصر الشروط الشرعية للحجاب بدقة في حين اكتفت نسبة ٧٦٪ بذكر شرط عدم إثارة "الانتباه" دون ذكر التفاصيل، ويرجع ذلك إلى جهلهنّ بالحجاب ودلالاته، خاصة وأنّ أشكال بعض الحجاب يتنافى أحياناً مع الشروط الشرعية الملزمة.

وعلى العموم فقد أكدت عينة البحث على البعد الظاهريّ للحجاب مع إهمال البعد السلوكي والأخلاقيّ، وهو ما يمكن اعتباره مؤشراً أصلياً لتأكيد البعد الاجتماعيّ للحجاب والذي يحتاج إلى مقام غير هذا المقام للحديث عنه.

وبالرغم من أنّ كثيراً من الخطابات الدينية تؤكّد على حقّ الزوج في ضرب زوجته وتأديبها إذا بدر منها نشوز، فإنّ المستجوبات يرفضن جملة وتفصيلاً مسألة الضرب، لما يلحقه من أذى وإذلال بالمرأة، وهي بذلك تمثّلات سلبية بنسبة ١٠٠٪ رغم ثبوت حكمه في القرآن الكريم، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّنا جمعنا بين الحجاب والعنف معاً لحضور الجسد كقاسم مشترك بينهما، أي الجسد المحجّب والجسد المعتف.

هكذا رسمت المرأة تمثّلاتها للخطاب الإسلامي المعاصر فيما يخصّ قضاياها وهي تمثّلات تنمي عن مجموعة من الخصائص الجوهرية يمكن استخلاصها فيما يلي:

- كثير ما كانت عينة البحث تخلط بين الأسطورة والدين، إذ تنسب بعض الأمثال والحكم إلى القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة، من ذلك تكرار قصّة خروج النبيّ آدم «عليه السلام» من الجنة، واللعنة الأبدية التي لزمّت حواء «عليها السلام» واعتبارها حقيقة مطلقة رواها النصّ القرآنيّ.
- إصدار بعض الأحكام الشرعية دون الاعتماد على نصّ أو أصل فقهيّ، وهو ما يفسّر عجزهم عن إنتاج خطاب متماسك مبنيّ مفهوميّاً يحيل إلى الإسلام الفقهيّ أو إلى سلطة الخطاب، ويظهر ذلك من خلال توظيفهم مفردات بسيطة تتوقّف عند الحدود الوصفية للأحكام والقضايا، نستثني هنا نسبة قليلة جدّاً عملت على الاشتغال ببعض القضايا خاصّة الحجاب وإعادة إنتاجه فقهيّاً عن طريق تحديد موقعه داخل المنظومة الدينيّة وتوظيف بعض الآيات التي تحيل إلى ذلك مع وجود خلط وعدم وضوح في أذهان المبحوثات بين المفاهيم الثلاثة للخمار، الحجاب، والجلباب.
- كما أبدت تمثّلات المبحوثات لقضاياها، ارتباطها الوثيق وتطابقها الكبير والإيجابيّ لبعض الأحكام، قطعياً الثبوت، أين تعاملت معها بنوع من الصرامة الدينيّة، رافضة رفضاً مطلقاً مناقشتها أو حتى التفكير في ذلك، وهو ما يظهر قوّة السلطة التي يمارسها النصّ الدينيّ على الأفراد باعتباره حقيقة مطلقة، ليعمّم ذلك على كلّ محاولة فكرية تسعى لإعادة القراءة أو التجديد كمحاولة للتماشي مع متغيّرات العصر.
- وفي المقابل وجد صدق كبير لأفكار التيار التجديديّ لبعض القضايا، أين أنتجت المبحوثات خطاباً فيه كثير من التساهل والانفتاح على بعض متغيّرات العصر، ويظهر ذلك جليّاً في مسألة العمل والزواج، خاصّة وأنّ هاتين القضيتين لا تحتكمان إلى سلطة النصّ، وإنّما إلى سلطة الخطاب من خلال اجتهادات الفقهاء ورجال الشريعة بشكل عامّ.

وما يمكن قوله في النهاية أنّ تمثّلات المرأة للخطاب الدينيّ فيما يخصّ قضاياها، لا تحمل تمثّلاً واحداً بل عدّة تمثّلات أغلبها متطابق مع الخطاب الدينيّ وبعضها مخالف له، نظراً للوضعية الجديدة التي تعيشها المرأة، أين بدأت تبحث لنفسها عن فرص التقدّم في المجالات العامة، ولم تعدّ ترضى بالأدوار التقليدية المحدودة، وهو ما لم يستوعبه الخطاب الدينيّ فعجز عن تفهمه، ومن ثمّ نفهم طموحاتها ونظرتها لذاتها، وهو ما يلزمنا بوضع مجموعة من التوصيات والمقترحات.

توصيات ومقترحات:

ليس بالأمر الهين واليسير وضع توصيات واقتراحات لموضوع في مثل هذا الحجم بإشكاليّاته وموضوعاته الشائكة، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بمساءلة العقل الفقهيّ، وتغيّر البنى الذهنية للأفراد، ولئن كان هناك بعض من المفكرين حاولوا طرح إشكاليّات جديدة معبرة عن الواقع المتغيّر ومعالجتها، فإنّ محاولاته متبقية فردية محتشمة مبعثرة هنا وهناك، في غياب حقل معرفيّ متخصص كما هو الشأن في الغرب، في ظلّ غياب أو عدم تهيؤ الأرضية الملائمة في المجتمعات العربية الإسلامية بعد.

وهو ما يدعونا بل يلحّ علينا إنشاء مراكز بحثية ومنتديات فكرية متخصصة تستقطب الكفاءات المختصة في مختلف حقول الفكر الإسلاميّ من علوم القرآن والفقهاء والحديث والعقيدة، والسيرة وغيرها، إلى جانب المجالات العلميّة المساندة أو اللصيقة، كالعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، والاستعانة ببعض المنهجيات الحديثة كعلوم اللسانيّات والسميائيّات والمنهج النبويّ، وهي علوم توظّف وسائل رئيسية لتنشيط الفكر الإسلاميّ وانتشاله من ركوده المزمع ولا تاريخيته لأنّها في الحقيقة تحترف الأسئلة والإشكاليّات الفكرية والعملية المطروحة فيها وتكشف خباياها المستترة واللامقولة.

المراجع:

- وائل لطفي، ظاهرة الدعاة الجدد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩.
- AlbareloLuc (1995), Pratiques et méthodes de recherche en sciences sociales, coll. « Coursus », Armand Colin, Paris.
- Abric, Jean-Claude (2001) Pratiques sociales et représentations, Puf Paris, 3ème éd, Paris.
- Bourdieu. pierre (1993) La misère du monde, Le Seuil, coll. « Libre Examen », Paris.
- Couet J. F, Davie A (1999), Dictionnaire de l'essentiel en sociologie, 2ème éd, éd Livis, Paris.
- Durkheim Emile (1998), De la division du travail social, Quadrige/Puf, 5ème éd, Paris.
